ساروجة ...

عقود طويلة مهدت لألسنة اللهب

قاسيون ...

مركز دراسات قاسيون

KASSIOUN.ORG

ساروجة ...

عقود طويلة مهدت ألسنة اللهب

تموز 2023

مركز دراسات قاسيون
KASSIOUN.ORG

قاسيون

ساروجة، ومحاولة اغتيال روح السوريين!

* افتتاحية قاسيون العدد – 1132

تجري مقاربة فاجعة ساروجة من عدة زوايا تجمعها محاولات القفز عن جوهر المسألة، بل والعمل على تغطيته وإخفائه.

هنالك من يختصر المسألة لحدود «الفساد الإداري» و«الإهمال»، أو «الكارثة الطبيعية»، أو يذهب أبعد قليلاً فيتحدث عن مصالح تجارية لأثرياء الحرب الذين تتناسب أرباحهم و«ثقافتهم»، مع دمشق أخرى وسورية أخرى، بلا تاريخ وبلا هوية وبلا ملامح.

البعض الآخر، ينسج الحكايا متعمداً أو منساقاً مع الدعاية، حول «تدخل إيراني» و«تشييع» وإلى ما هنالك، وهذا بعيد كل البعد عن الواقع، على الأقل في المثال الملموس الخاص بساروجة. وهذا الكلام هو بالجوهر دخان كثيف المطلوب منه التغطية على أصحاب المصلحة الحقيقيين في الحريق، والذين تتصل جذورهم «الاقتصادية–الاجتماعية» من أولئك الذين جروا عربة غورو مروراً بإيكوشار الفرنسي، وعبوراً على تجار الحرب وأثريائها، ووصولاً إلى الدأب الصهيوني المستمر، سابقاً والآن، على إنهاء سورية مرة وإلى الأبد.

فلننظر للمسألة من الزاوية الأوسع... إنّ ما جرى ويجري في سورية ينطبق في مراحله على الطريقة النيوليبرالية في اغتيال الدول والشعوب. هذه الطريقة تمر بثلاث مراحل أساسية.

أولاً: يجري القضاء بالتدريج على جهاز الدولة المدني عبر القضاء على وظائفه الاقتصادية الاجتماعية، وهذه تتم وشارفت على نهاياتها عبر اللبرلة والخصخصة ورفع الدعم، بحيث يفقد جهاز الدولة دوره الاجتماعي المتعلق بمصالح غالبية الناس، ويبقى دوره «الاجتماعي– القمعي» الذي يصب في مصالح القلة المتبطرة الفاسدة الناهبة، والمرتبطة عضوياً بالغرب، وبغض النظر عما تقوله من شعارات.

ثانياً: يجري القضاء بالتدريج على الوظيفة العسكرية لجهاز الدولة، عبر إنهاء «حصرية السلاح»، وتكريس عدد من «الحصريات» محلها، وهو ما نراه قد أنجز بشكل ملموس إلى حد غير قليل.

ثالثاً: وبعد هذا وذاك يكون قد تم من حيث المبدأ اغتيال جهاز الدولة، وبقي أمام اغتيال الدولة نفسها عائق واحد، هو روح وثقافة الشعب، وبتعبير آخر النواة الثقافية للمجتمع. ولحل هذه القضية يظن أصحاب مشروع اغتيال سورية أنّ بوابة «إعادة الإعمار» هي البوابة الأساسية لهذا العمل.

ليس هذا بغريب؛ فالنظر في التجربتين اللبنانية والعراقية، وغيرهما، يسمح برؤية التطبيق العملي لهذا

التمرحل؛ مثال سوليدير اللبناني كافٍ وحده لاستيعاب الصورة الكاملة للمسألة.

منع اغتيال سورية وشعبها، بات يمر حكماً بحل سياسي حقيقي على أساس القرار 2254 يؤمّن الإرادة السياسية اللازمة لحماية سورية وأهلها؛ لأنّ أصحاب هذه الإرادة هم الـ 90% من السوريين، الذين يدعي كل من النظام والمعارضة تمثيلهم، في حين أنهم لم يُسألوا عن رأيهم بشكل ديمقراطي حقيقي منذ عقود، والحل السياسي بما يعنيه من حق السوريين في تقرير مصيرهم بأنفسهم هو البوابة الأساسية ليس لإيقاف التدمير فقط، بل ولإطلاق العنان لأصوات السوريين المحبوسة في صدورهم.

رغم حجم الفاجعة، وما تُلحِقه بروح سورية والسوريين من ألم، إلّا أنّ النظر بتمعن في تاريخ دمشق الطويل، وفي تاريخ سورية ككل، يكشف مدى ضحالة وغرور أولئك «ممن في الخارج وعلى رأسهم الصهاينة، وممن في الداخل وعلى رأسهم الفاسدون الكبار والمتشددون»، الذين يظنون أن حريقاً هنا وحريقاً هناك، ومشروعاً هنا ومشروعاً هناك، يمكنه أن يغتال روح الشام وروح أهلها... والحق أنهم لو تمكنوا من إحراق دمشق بأسرها، لا حياً واحداً من أحيائها، لخرجت عليهم المدينة حيةً من جديد، وحولتهم إلى هامش على سطر من سطور تاريخها، وهذا ما جرى فعلاً مع كثرٍ آخرين، مروا وابتلعتهم الأزمنة...

إن لم تكونوا أنتم من حفر الحفرة فلماذا تحملون المجرفة!

*علاء أبو فراج

شارفت موجة التعاطف مع حي ساروجة العريق بعد الحريق المأساوي الذي التهم أجزاءً مهمة من بقاياه على الانتهاء، شأنها في ذلك شأن معظم القضايا الكبرى التي يرى البعض مصلحة في حصرها في أضيق إطار ممكن وتصويرها كحدث محزن طارئ وغير متوقع. لذلك يفتح باب العزاء للحي الدمشقي المغدور وبعد ثلاثة أيام تعود الحياة كما لو أن شيئاً لم يكن!

في عام 2014 نشرت جريدة قاسيون مقالاً بعنوان «قصر أمير الحج.. قبل أن يصبح ركاماً» وربما لن يصدق البعض الصور التي التقطت في حينه لقصر أمير الحج الذي بدا في بعض أجزائه خرابةً متداعيةً بأسقفٍ منهارةٍ، أو على وشك الانهيار.

القصة المأساوية التي رواها أحد قاطني البيت وأحد ورثته الكُثُر، عند زيارة البيت كانت قاسية، لكنها لم تكن تختلف كثيراً عن قصص تروى حول عدد كبير من معالم وآثار المدينة القديمة؛ فالقصر الذي كان يحافظ رغم وضعه على كثير من عناصره الجمالية، كان يتجه إلى حتفه، ولم يكن من الممكن توقع نهاية مختلفة لهذا المعلم التاريخي والمعماري، وخصوصاً في ظل الإهمال المتراكم للمدينة القديمة. لكن وما إن شبّت النيران في الحي المقسّم، ودمّرت مساحة كبيرة إلى جانب قصر اليوسف، صاح البعض مذعورين، تحديداً لأن الحريق أصبح مناسبة لتداول القصص عن تاريخ الحي وبيوته وأهله، وشعر الناس بالغبن وبحجم خسارتهم، وكان لابد في

لحظة كهذه من طرح الأسئلة المشروعة: هل كان الحريق متعمداً؟ هل عمل البعض في الخفاء لتحويل هذا الحي إلى أسهم عقارية يجري طرحها للاكتتاب ليسيطر عليها وبشكل مفاجئ حيتان السوق؟ أم أن المسألة كانت حادثاً عرضياً في عاصمتنا، التي لم يعد جهاز الدولة فيها قادراً على احتواء حرائق في أحيائها، وذلك رغم تفاني رجال الإطفاء ضمن إمكانياتهم المحدودة؟

هل المسألة مسألة تجار بناء حقاً؟

لابد لنا أن نبحث عن أجوبة عن هذه التساؤلات، لكن يجب قبل أن نبدأ في البحث «الجنائي» حول المتورطين أو حيتان العقارات والمنتفعين الذين ربما تسببوا أو تستروا على المسؤولين عن الحريق، يجب علينا أن نطرح السؤال من زاوية أوسع: هل إهمال مدينة دمشق القديمة هو نتيجة جشع التجار والسماسرة؟ أم هو أكثر من ذلك؟ إلقاء اللوم على «تجار بناء» أو أشباههم لا يمكن أن يكون سوى ربع الحقيقة في أحسن الأحوال، ولا مجال حين نقاش مسألة من هذا النوع، إلا أن نعود سريعاً إلى تلك الفترة التي استعمرت فرنسا فيها بلدنا، وكان لها مصلحة حقيقية حينها في إلحاق أكبر ضرر ممكن بهويتنا، شأنها في ذلك شأن أيّ مستعمر، لكن

مراجعة تلك الحقبة تثير الكثير من الاستهجان، وتحديداً حين يبدو أن كثيراً من ملامح وسياسات المستعمرين السابقين لا تزال قائمة، ما يدفعنا لطرح السؤال على كل الحكومات السورية منذ الاستقلال وحتى اللحظة: إن لم تكونوا من حفر هذه الحفرة، فلماذا أنتم من تحملون المجرفة؟

يبدو نقاش هذه الفكرة متشعباً؛ فالحريق الأخير لم يكن سوى نتيجة لسياسات وضعت منذ عقود طويلة ورغم أن حوادث كهذه بدت في حينه حوادث متفرقة لا رابط مباشر بينها، فإنّ الصورة اليوم باتت أكثر وضوحاً... فمخطط تفتيت دمشق والذي يأخذ ملامحه التي نراها اليوم يعود في جذوره إلى الاحتلال الفرنسي، الذي استعان وقتها بالمهندس الشهير ميشيل إيكوشار «Michel cochard» في إعادة تخطيط المدينة. وبرغم أن المهندس الفرنسي كان في العشرينيات من عمره وقتها، ولم يكن يملك الخبرة الكافية للتعامل مع مدينة بتاريخ عريق كدمشق، إلا أن الاستعمار أطلق يده في الكثير من المسائل، وأصبح مهندساً استشارياً للحكومة السورية المشكلة في تلك الفترة، ليصبح لاحقاً مدير مكتب تخطيط المدن في سورية.

ونعرف اليوم، أن إيكوشار الذي «صقل» نفسه مهنياً في عدد كبير من مستعمرات فرنسا، من سورية إلى المغرب وساحل العاج والكونغو والكاميرون وغيرها الكثير، صاغ في خمسينيات وستينيات القرن الماضي فلسفة معمارية جديدة للمدن تقوم على فكرة كسر الجسر الرابط بين عمارة البلدان المستعمرة مع بيئتها وثقافتها، ومع ما أنتجته هذه الثقافة من موروث معماري وفني سابقاً، لتتحول المدينة بمعناها العميق إلى بقايا غير مترابطة وغير مفهومة.

إيكوشار و«شارع الثورة»!

يرى البعض، أن مهمة إيكوشار كانت بسيطة، وهي أن يخلق داخل المستعمرات الفرنسية فضاء ملائماً للمستوطنين الأوروبيين، إلا أنّ المسألة أكبر بكثير من ذلك، ولا يمكن فصلها إطلاقاً عن سياسة استعمارية شاملة، وضعت مهمة طمس هوية شعوب هذه المستعمرات، ويمكن لنا أن نجد آلاف الأمثلة على ذلك، وفي

الكثير من المجالات. لكن ما يثير الاستغراب حقاً وفي المثال السوري تحديداً، هو أن إيكوشار وبالرغم من كونه المختار من قبل محتلينا لأداء واحدة من أقذر المهام في التاريخ، كان خياراً مقبولاً حتى بعد أن نالت سورية استقلالها بسنوات، وجرى التعاقد معه شخصياً من قبل الحكومة السورية في عام 1968 لوضع دراسة بشكل وطبيعة التطوير الذي تحتاجه دمشق، وعاد مهندس الاحتلال ليكمل ما بدأه قبل أكثر من عقدين، ووجه أكبر الضربات لحي ساروجة، تحديداً بعد أن وضع مخطط ما يعرف باسم شارع الثورة اليوم، وقسم الحي إلى قسمين وتوزعت أبنية حديثة على جانبي الطريق الحديث. هذا المشروع لم يضر حينها حي ساروجة، فحسب بل أضر بالكثير من ملامح المدينة الأخرى، فلحق غوطة دمشق ضرر كبير، وتم فصلها بشكل ما عن دمشق، وأنهى أيضاً كتلة مهمة من أسواق دمشق التي امتدت خارج أسوار المدينة القديمة.

في ذاكرتنا الجمعية

إذا أعدنا ترتيب كل ما سبق، سيكون واضحاً أن المطلوب كان طمس الهوية، فعمارة المدن كانت دائماً جزءاً من تاريخها الذي يتحول إلى قضية راهنة كونه امتداداً لكل نضالات شعب ما، ومن حاول طمس هذه الهوية كان يسعى إلى تفتيت المجتمع ليجد السوريون– مثلاً – أنفسهم حائرين، لا يفهمون كيف وصلوا إلى هذه البقعة

من الأرض، وما هي الروابط العميقة التي جمعتهم وتشكّلت بينهم. عمارة دمشق جزءٌ من ذاكرة جمّعية نقلها سكانها من جيل إلى آخر، شأنها في ذلك شأن كلّ المدن السورية، هذه الذاكرة الجمعية حملت فيما حملته الكثير من عناصر ثقافتنا كالطعام والأغاني والفنون، لكنها حملت أيضاً تلك «السليقة» التي سمحت للسوريين بتحديد أعدائهم بسهولة، في الخارج والداخل، ومن هنا يصبح فهم التدمير الممنهج لكل أوجه هذه الهوية ممكناً، ويصبح مفهوماً أيضاً، لماذا ظل تدميرها هدفاً مُلحاً حتى بعد جلاء الفرنسيين! فهذه السليقة مثلاً دفعت بآلاف السوريين لتشكيل جيش إنقاذ فلسطين الذي اندفع إليه شبان في بداية حياتهم لأنهم شعروا بالخطر، وشعروا بأن المشروع الصهيوني لا يستهدف فلسطين وحدها، بل يستهدف وجودهم هم أيضاً، ليعيدوا في ذلك إحياء جيش المتطوعين الذي مضى إلى ميسلون خلف يوسف العظمة في معركة جسّدت ملامح بلدنا في العصر الحديث.

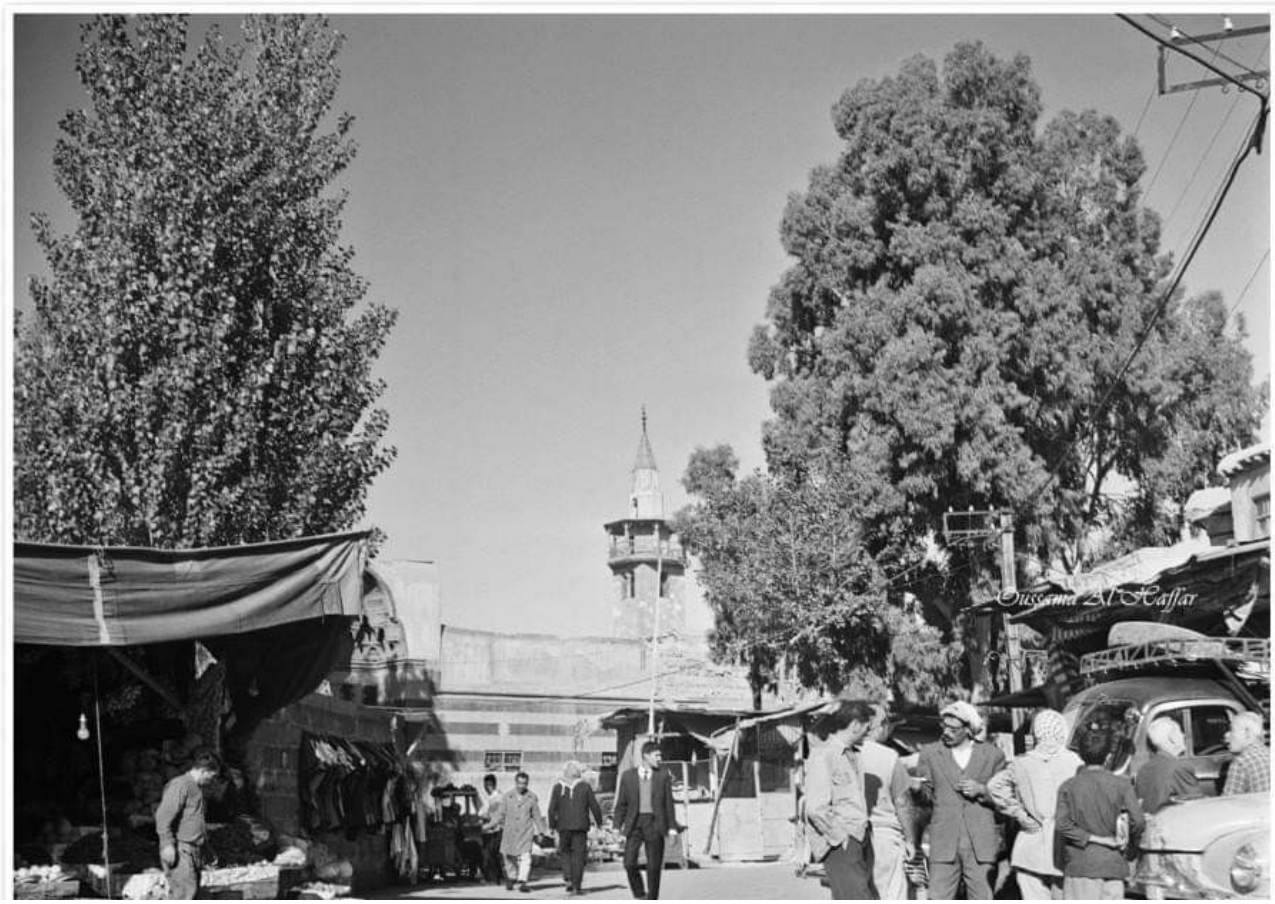

الحيرة التي تصيب شاباً حين يقف اليوم عند بسطات الطيور الموزعة على الأرصفة بجانب حمام القرماني المتداعي هي شعورٌ طبيعي، فلن يدرك سبب اختيار هذه النقطة بالذات لبيع الطيور، فسوق الطيور لم يعد موجوداً، ولا توجد أية إشارة إلى تاريخه، أو إلى أنه كان هنا في يوم من الأيام، وهذا ما يجري مع الكثير من معالم دمشق التي جرى تشويهها وتدميرها، فالشواهد على الأحداث المفصلية في تاريخنا تختفي تدريجياً كما لو أن الصراع مع الاستعمار لم يحدث في دمشق هذه التي نعيش فيها اليوم.

الحيرة تلك من بسطات الطيور المبعثرة هي نفسها الحيرة التي تبدو على وجوه بعض الشبان حين يسمعون أن شباناً في أعمارهم مضوا إلى ميسلون خلف يوسف العظمة، رغم أنهم كانوا يعرفون النتيجة الخاسرة

للمعركة مسبقاً، وهو بالتحديد الهدف من طمس هويتنا وكل دعائمها، أن يبدو تاريخنا سلسلة مبعثرة من قصص عفا عليها الزمن، لا نفع منها أو من حفظها وترك شواهدها قائمة. فإيطاليا مثلاً: لم تكتف بإعدام عمر المختار بل رمته من الطائرة في الصحراء، كي لا يتحول مكان دفنه إلى شاهدٍ على وجوده، ووسيلة لنقل نضاله إلى أجيال أخرى، وكان لا بد بالنسبة لأعدائنا أن يتغير شكل دمشق كونها مليئة بآلاف الشواهد على تاريخنا وخصوصاً الحديث منه.

ومن هنا تحديداً، كانت «اسرائيل» أكثر من سعى لإنجاز ذلك، بعد أن حرص وكلاء الاستعمار الداخليين حتى بعد الاستقلال على تنفيذ هذه المهمة القذرة، فإن كان القرار السياسي للاستعمار في لحظة، هو طمس هويتنا ونتجت عن ذلك جملة من السياسات، فما مغزى أن تظل هذه السياسات قائمة حتى اللحظة؟ وما معنى أن يستمر هذا التدمير الممنهج الذي نشهده؟ الاتهامات المتبادلة التي نسمعها اليوم، ومحاولة تحميل المسؤولية لتجار أو متربصين خارجيين بعقارات ما، هي تعمية مقصودة على عدونا الحقيقي، وعلى كل وكلائه الداخليين الذين يظنون واهمين أنهم كانوا أول من فكّر بتدمير دمشق، متجاهلين أن هذا «الركام المبعثر» يحمل روحاً عصية على القتل، وعصية على التدمير، مهما بلغ طيش العابرين به، ومهما بلغ استهتارهم به!

هل إيكوشار هو من أحرق ساروجة؟
د. ناديا خوست هذا الحريق ليس بريئاً

*لقاء مع: د. ناديا خوست
حاورتها: د. عروب المصري

على خلفية الحريق الذي أصاب عدة مبانٍ تاريخية في سوق ساروجة والضجة التي أثارها هذا الحريق على المستوى الشعبي بشكل رئيس، ولأنه ليس الأول من نوعه، فقد بات من الضروري وضع الأمر في سياقه لفهم أبعاده المختلفة...

Narodowe Archiwum Cyfrowe, sygn. 1-U-8479

وليس بخاف على القارئ أن الدكتورة ناديا خوست، كانت وما زالت من أعلام الدفاع عن المدينة القديمة في دمشق، وسوق ساروجة تحديداً، ويبدو ذلك جلياً في عدد من إصداراتها الأدبية والتوثيقية للتاريخ السوري المعاصر، ناهيك عن نضالاتها الملموسة طويلة الأمد من مختلف المواقع في هذا الاتجاه.

وقد استطاعت تقديم العديد من التوضيحات التي يتساءل عنها السوريون في لقاء لقاسيون معها حول هذا الحريق.

- **د. ناديا، عرفك السوريون من خلال فضحك المستمر لمخطط إيكوشار، وقد تحدثت عن علاقة الحريق بذلك المخطط. وضحي لنا لو سمحت فكرتك عن ذلك.**

هنالك فكرتان، الأولى: هي أنّ مخطط إيكوشار بالتحديد هو الذي كسر حي ساروجة من خلال شارع الثورة، مخطط إيكوشار والجزء الخاص فيه بسوق ساروجة الذي قدم منذ عام 1936، وضع لاختراق حي عربي فيه مشاكل بالنسبة للفرنسيين وهي المقاومة الوطنية، وفي عام 1968 عندما تم تقديم مخطط إيكوشار للتنفيذ وضع هذا التفصيل ضمن المخطط.

- **هل كان إيكوشار ينفذ هذا المخطط أثناء وجود الفرنسيين؟ أم لم يكن جارياً تنفيذه آنذاك؟**

أتت الصحفية الفرنسية التقدمية أليس وللو عام 1925، وكتبت عن الثورة السورية، وذكرت أنه هناك مهندسون يعملون مع الانتداب لا تقبلهم بلدية من الدرجة العاشرة في فرنسا، يخططون لأقدم مدينة بالتاريخ. أي أن هنالك تفاصيل عديدة كان يجري العمل عليها منذ ذلك الحين. وهذا تفصيل من تلك التفاصيل، وكما ذكرت مخطط كسر سوق ساروجة منذ العام 1936 تم من خلاله شق ما يسمى بشارع الثورة ومنه ضرب وتفكيك

النسيج المعماري. وفي العام 1968 وعلى أساس المخطط تم ضرب البيوت المهمة، ومنها بيت السبح مثلاً. كان هذا البيت– القصر بجانب بيت العابد بحجة تخصيصه كمركز بريد، من أجل تفكيك بنية الحي، صحيح يوجد في العالم مراكز في الأبنية التاريخية، لكن من أجل تفكيك الحي تم ضرب أهم البيوت فيه. هدموا أيضاً بيت المرادي وهو قصر مهم جداً وثقه الباحث خالد معاذ منذ زمن، وصوّر البحرة التي يبلغ قطرها خمسة وعشرين متراً. ويوجد بداخله جامع وتربة.. إلخ. فهو على هذه الدرجة من الضخامة. ويقال: إن الشخص الذي يعيش به لا يحتاج أن يخرج للخارج. ومن ضمن طرق المخطط التنظيمي لإيكوشار يقول بأنه يمكن تنفيذه عبر استملاكات باسم المدارس في قلب دمشق القديمة.

- **قامت قاسيون في عام 2014 بتصوير المنزل وتوثيق وضعه المهدم والوضع السيء بسبب الإهمال.**

قمت بعمل مسودة قرار مقترح لمجلس محافظة دمشق بالتسعينات لاستملاكه، لأنه في ذاك الوقت كان الورثة 11 شخصاً متفرقين في أنحاء العالم، وكان البيت يتهدم. كانت هنالك بعض العناصر المعمارية ما زالت سليمة؛ مثلاً: عندما قمت بزيارته بالتسعينيات كان سقفه سليماً من الداخل، وهذا ما وثقته رئيسة المجموعة الأوروبية باستخدام الصور التي أخذتها لبيت اليوسف في كتاب لها، وكان من الممكن ترميمه عندما قمنا باستملاكه بأقل الخسائر الممكنة.

من المعروف أن البيوت الثمينة أصحابها أغنياء ودائماً بتاريخ العمارة في العالم، الأغنياء أو الطبقة الغنية

والطبقة الحاكمة هي من تمتلك مثل هذه القصور. من المفيد معرفة أن عبد الرحمن باشا اليوسف من أصول كردية، وكان يوجد في مقدمة منزله قرب الباب مثل محرس صغير يقدمون فيه القهوة، وعلى اليمين مطبخ هذا المنزل الفخم الذي كان يطعم الضيوف، وليس صحيحاً أنه كان يفتح بابه للفقراء، هذه المعلومة ليست صحيحة. ويشاع أنه كان يقوم بذبح حوالي 30 خاروفاً باليوم ويقوم بطبخها، والصحيح أنه كان يطعم من يأتي لتثبيت موقعه كأحد الوجهاء من باب آخر، وجرى التركيز أثناء الأسبوع الماضي على أنه أمير الحج مع إغفال جوانب أخرى، لقد كان شخصية سياسية ويتميز بأنه كان مع «الاتحاد والترقي» أي أنه كان مختلفاً عن العابد الساكن في الطرف الآخر من سوق ساروجة، ذاك الذي كان مع السلطان عبد الحميد وعنده ميول وطنية وضد هيرتزل، ومن المعروف أن هيرتزل بمذكراته تحدث عن العابد بشكل سيئ، حيث أن السلطان عبد الحميد قد قام بتكليف العابد باستقباله والرد عليه. بينما عبد الرحمن باشا اليوسف كان في الطرف الثاني. عندما ذهب

الفرنسيون قبيل الانتداب نسق عبد الرحمن باشا اليوسف مثل أي شخص انتهازي سياسي مع الحكم الوطني، بعدها رأى أن الفرنسيين قادمون اتصل بهم، وقمت بتوثيق هذه الحادثة في الصالة التي قمت بزيارتها آنذاك وكانت سليمة. اتصل بالرجال قادة الأحياء ودعاهم لقصره وقال لهم: أريد أن أقول لكم شيئاً، ولكن قبل ذلك أقسموا على القرآن ألا تبوحوا بالسر، ولا تقولوا شيئاً عما سأقوله لكم ولا تنشروه، وأقسموا، ثم قام بتجميع كوم من الليرات الذهبية في منتصف الصالة، وقال لهم: هذه لكم إذا دخل الفرنسيون مع جيشهم القوي من دون مقاومة، هذا الذهب لكم، لكن قسماً من رجال الأحياء المتمسكين بالقَسَم اجتمعوا في منزل عمر البهلوان في قبر عاتكة، وقد تحدثت معي ابنته الصغيرة وقالت ما يلي: «هنا في أرض الديار اجتمعوا، وجلس الرجال

على هذا الدرج، وجاء واحد منهم ووقف أمام الحائط، وقال له: يا حيط كنا البارحة في منزل اليوسف، وقال لنا كذا وكذا وكذا» حتى لا يحنث بيمينه، والطريف أنه إذا قرأت ملحمة جلجامش سترين أنه يوجد شبيه لذلك الحوار مع الحائط لكي لا يكسر اليمين. ومن هنا من هذا المنزل من بعده مباشرة خرجوا واجتمعوا في داخل السور في قلب المدينة القديمة– لا أذكر في أي حي– وهناك قرروا إنشاء لجان الدفاع عن المدينة، وقرروا الالتحاق بيوسف العظمة لكي يدافعوا عن المدينة، وما كان من عمر البهلوان صاحب ذاك البيت إلا أن ذهب مع يوسف العظمة وقاتل معه في ميسلون وعاد مع الجرحى. وقد سجلت وقتها أن بنت القضماني قامت بنقل الأسلحة المستخدمة في معركة ميسلون إلى البساتين وقامت بتخبئتها، وعادت هي نفسها للقيام بنقلها إلى الثوار عام 1925 في نفس العام الذي قامت فيه الثورة. دعينا نعود إلى عبد الرحمن باشا اليوسف هذا الذي سار في ركب الفرنسيين، عندما بدأ التمرد في حوران قام الفرنسيون بتكليفه هو والدروبي أن يوجهوا إنذاراً

أو أن يقوموا بتهدئة الثائرين، وذهبا بالقطار ووصلا إلى خربة الغزالة– قمت بزيارة هذه المحطة، وهي محطة كاملة جميلة جداً– وقاموا بقتله هناك لأنهم اعتبروه خائناً، وقال لي أهل المنطقة كيف كان يأتيهم القمح السوري والسمسم الفلسطيني، وتحدثوا عن كيفية قتل عبد الرحمن باشا اليوسف. هناك عدة مسائل موضوعة أمامنا: هل طلبنا حماية منزل عبد الرحمن باشا لأننا معجبون به؟ لا لسنا معجبين لا بالأمراء ولا بالملوك، ومع ذلك عملت على حماية كل بيوتهم ودائماً توظف العمارة بوظائف جديدة مناسبة للزمن والعصر، المسألة الأخرى: أنه اندلع حريق كبير والتهم هذه العمارة، هل يعترف بأن الأمر قد انتهى، ويجب إيجاد تخطيط جديد أو تنفيذ مخطط إيكوشار في تلك المنطقة؟ لا بالعكس، الغضب من الحريق يبين أن الناس شبعت من موضوع الأبراج واستلهام الغرب والخليج في العمارة، يجب أن يعاد بناء هذه المنطقة كما كانت. وهذه ستكون سابقة. لقد زرت درسدن في ألمانيا الديمقراطية كان تقريباً حوالي 90% من بيوتها مهدمة، وفي أثنائها وضعت الحكومة برنامجاً لـ 25 عاماً لاستعادتها، ورممت بيوتاً ضخمة وفخمة، مثل: المتاحف والخ، وهذا هو ما يجب أن يُعتمد،

لا أن يكافأ تجار العقارات أبداً، هؤلاء الناس الذين لا يهتمون سوى بجيوبهم، وإنما نحتاج بداية جديدة من سوق ساروجة لإعادة البناء بالطراز نفسه والارتفاعات نفسها، وأهم شيء هي الارتفاعات والفراغات نفسها، حيث ثبت أن المنزل العربي هو أكثر المنازل مناسبة لهذا الطقس لوجود فسحة للتنفس. العالم في أيام الحر تنام في أرض الديار.

- **عملية الإهمال المتعمد لهذه المنطقة، حيث تم وضع اليد على بيت يوسف ولكن لا يوجد أي إجراء ترميمي نهائياً وتم تركه للتقادم بالزمن، ولاحقاً بالحريق كي يهبط على الأرض، هنا هل يمكننا أن نقول: إن هناك عملية متعمدة، أي الإهمال جزء من عملية التدمير؟**

يوجد دائماً بجميع الأبنية التاريخية والمدن القديمة المهمة الثمينة نظام ضد الحرائق، ويوجد نظام للتعامل مع المواد التي من الطبيعي أن تكون قابلة للاشتعال كالخشب والطين، هذا لم يكن موجوداً لدينا، نحن معتمدون على العناية الإلهية «إنه كله ماشي الحال» ولا بأس الخ، مثلاً: ألا يكون هناك نظام للحماية بدار

الوثائق التاريخية شيء غير مفهوم. فدار الوثائق التاريخية– بيت العضم– ملاصق تماماً لبيت اليوسف، حتى أنه كان يقال سابقاً: إن أتى ضيوف كثر إلى بيت العضم ولم يكن هناك مكان لاستقبالهم يذهبون لبيت اليوسف لأرض دياره مباشرة، والعكس كذلك، إذاً يمكن انتقال الحرائق، من المفترض أن توجد أساليب للإنذار الفوري

من رائحة الحريق ورش المياه المضغوطة للإطفاء أو أجهزة الإنذار. يبدو أن الإحراق حدث من عدة أماكن، لذلك وكما قال لي مختار سوق ساروجة: «كنت مع المحافظ بعد نصف ساعة تماماً من الحريق وكنت أقفز من سطح لسطح مع رجال الإطفاء، يبدو أن الحريق أو الإحراق تم إشعاله من عدة أمكنة».

- **من الواضح بالنسبة لنا ما هو الهدف من مخطط إيكوشار، من عملية تدمير المدينة القديمة وشق شوارع من منتصفها وتدمير البنية المعمارية للمنطقة دعينا نتكلم بشيء من التفصيل عن ذلك.**

لا يمكنني أن أرى لا مخططاً اقتصادياً ولا معمارياً خارج الصراع الرئيسي في المنطقة، الذي جميعنا اليوم نعيشه، والذي وُلِدنا وهو موجود، وما زال أولادنا يعيشونه، «إسرائيل» تبحث عن أي أثر تاريخي أو تخترعه أو تنقب عن الآثار، فأثناء غزو العراق ذهبوا مع الأمريكان من أجل التنقيب هناك، اخترعوا أثناء الاحتلال الأمريكي المباشر والفظ آثاراً لهم، أصبحوا يترجمون بعض الأماكن التاريخية ترجمة توراتية، ومن قبلها هناك وثائق قاموا بترجمتها ترجمة توراتية في محاولة تطبيق وإقحام التوراة على التاريخ، وهذا أمر معروف. ماذا تقول الوثائق الصهيونية؟ أنا استشهد دائماً بها، الوثيقة عنوانها «تل أبيب– موسكو– 1985» وقت البيريسترويكا، ماذا تقول؟ اهدموا الآثار التاريخية علناً واتركوها تهمل، وتظاهروا بانشغالكم بالمسائل الاقتصادية وستفككها الغوغاء حجراً حجراً، هذه الوثيقة موجودة لديّ حرفياً.

- **ما مصدر الوثيقة ومن الذي قام بكتابتها؟**

هي رسالة داخلية من المنظمة الصهيونية إلى جماعاتها في الاتحاد السوفييتي الذين تقوم بتحضيرهم من أجل الانقلاب بعد البيريسترويكا لإلغاء الاتحاد السوفييتي. من ضمنها توجد مقاطع اقتصاد ومقاطع من الفكر، مقاطع عن قيادة الدولة وعن المؤسسات الخ، وثيقة مهمة جداً. تم تسريبها إلي عندما كنت بالاتحاد السوفييتي، هذه الوثيقة تقول: «عندما يصبح الشعب دون تاريخه يصبح كالطفل الصغير دون أب وأم ويسهل علينا قولبته» هذا ما ورد في الوثائق، أما عملياً، فنحن نرى كم يحاولون الاستيلاء على المسجد الأقصى بالحفريات في فلسطين رغم كل شيء لم يقدروا على شيء، إذا مسألة الهوية التاريخية هي مسألة مهمة من صلب الصراع العربي– «الإسرائيلي»، لذا لا أستطيع أن أرى أبداً حماية الهوية المعمارية من ناحية فنية فقط، من الناحية الجمالية أجل إنها جميلة، ومن الناحية الفنية عظيمة، لكن هذا كله ذو محتوى سياسي– وطني لأنها تعبير عن شعب وتعبير عن حضارة، ومن أجل هذا التعبير يجب وضع حماية لها.

- **في بيروت عندما قاموا بتدمير المدينة القديمة وعملوا سوليدير فيها، دمروا آخر الاثار الفينيقية في لبنان، بالمقابل، ماذا تعني البنية المعمارية الموجودة في المدينة القديمة بالنسبة للسوريين بالمقارنة مع ما حصل في بيروت؟**

المدينة العربية تتميز بما يلي: لسنا مثل الأوروبيين أي الأثر التاريخي بحد ذاته يكفي، بنية المدينة هي النسيج المعماري التي تضم بداخلها جميع الأبنية التاريخية من أضرحة وجوامع وحمامات الخ، جميعها مدككة تدكيكاً،

أي النسيج هو الأثر المعماري، إيكوشار بـ«فزلكاته» قال: «يكفي أن نترك حمام مثلاً، يمثل فترة كذا» وهذا خطأ كبير، وإيكوشار لا يتجرأ أن يقول مثل هذا الكلام في فرنسا، ولا في أي بلد أوروبي، لأن الأوروبيين يحمون نسيجهم المعماري، ليس لأنه مهم فحسب، بل لأنه يمثل الهوية. تتميز المدينة العربية أيضاً أنها قامت بحفظ شيء ديمقراطي بداخلها، حيث أنه في أصغر وأبسط بيت يوجد له حق بالسماء وبالماء وبالخضار ولو كان محدوداً وفيه حوض صغير، لكن لهم الحق فيه. لم تفصل المدينة القديمة العربية بيوت الأغنياء عن بيوت الفقراء، لذلك ترين بيت الغني بجانبه بيت الفقير وهذا يدل على التكافل الاجتماعي، فالأغنياء لا ينعزلون بمدينة لوحدهم ويتركون الفقراء، كانوا محتاجين دائماً للدعم، كان هناك دائماً غزو يهددهم، ويهدد البلد كله ولا يرد هذا الغزو إلا التلاحم الاجتماعي. صحيح لم يكن يوجد متاحف، لكن لم يكن يوجد عزل للفن في مكان محدد، كان الفن مُشرّباً بالحياة اليومية والعمارة، لذلك ترين أن أبسط البيوت في سوق ساروجة- أقدر أن أقول: إنني دخلت جميع البيوت في سوق ساروجة- ترين الزخرفات في حجر على الباب، وترين ذلك بطريقة المطلة وجمال النافذة بإطارها، وعندما تخرجين من باب الغرفة ترين دائماً الأرضية مثل سجادة صغيرة على العتبة، فالفن كان داخل المنزل والبحرة مهمة جداً، كلها زينة وحولها مثل السجادة، توجد بيوت بسيطة وبيوت غنية، وكلها فيها هذه العناصر، الفن مهم والعناصر الفنية في دمشق بسيطة من الطين والخشب المحلي، والفن كان يصنع الجمال من هذه المواد البسيطة، فصنع العجمي هذا الفن الفخم من هذه العناصر البسيطة، فلذلك هذه المدينة العربية التي لها كل تلك السمات الإنسانية والثقافية والاجتماعية، لذلك لا يمكنك أن تقصقصيها، وأن تقولي أريد هذه القطعة ولا أريد تلك. ذات مرة في ندوة أقامتها كلية العمارة ودعي إليها محاضرون أجانب كحضور، عرضت الندوة مخططات لحي القنوات، وقالوا: إن هذا القسم يمكن الاستغناء عنه، وقال لهم الأجنبي: على أي أساس تقولون: إن هذا يمكن الاستغناء عنه؟ لا يوجد شيء يمكن الاستغناء عنه!

- **يبدو أن هؤلاء جماعة إيكوشار السوريين؟**

توجد عناصر متماسكة في البنية المعمارية ترميمها غير متعِب، وعناصر أخرى غير متماسكة متعِبة بالترميم، لكن هذا لا يعطي الحق لأي أحد بحذف هذه العناصر المتعبة التي يجب ترميمها بكل الأحوال.

بالمعنى الوطني، ليست لدينا استراتيجية لحماية تراثنا، بالمعنى الفكري لا يوجد منطق يحكم هذه العملية، لذلك بالنسبة لسوق ساروجة من خلال المعارك القديمة لحمايته، وصلنا إلى أن كلية العمارة هي الهيئة العلمية التي تستطيع دراسة حي سوق ساروجة. وتمت دراسته، وعملت مقدمة تاريخية عن الحي، وصنعت مجسم الحي، ووضعت له الحلول. هذا كله موجود في كلية العمارة منذ تسعينيات القرن العشرين. وهذا لم يحصل لأن محافظة دمشق قائمة على الفساد، وقائمة على مجموعات الفنيين فيها لهم علاقات مع تجار البناء والمهم لديهم الهدم.

- **بالعودة الى إيكوشار، ممن تبنوا سياسة إيكوشار وبدأوا بتنفيذها هل كان عبد الرؤوف**

الكسم أولهم، أم كان هناك من سبقه في الحكومات السابقة؟

عبد الرؤوف الكسم هو الذي استخدم إيكوشار، والمخطط الكامل أصبح ينفذ قطعة قطعة، لأنني عندما قرأت المخطط كاملاً وباللغة الفرنسية كما وضعوه في تلك الليلة لم أنم، وقلت بأنه مخطط صهيوني لإزالة دمشق ووضع مدينة أخرى مكانها.

- **ما هي الأجزاء الأخرى التي نفذت من مخطط إيكوشار؟**

هو يقول: إنه يريد إزالة دمشق كلها ووضع غيرها بكل بساطة، أول شيء قاموا به: هو إزالة دار البلدية في ساحة المرجة– ساحة الشهداء التي أُعلن منها استقلال سورية ورفض الوطن القومي الصهيوني 1920، ثانياً: قاموا بإزالة وتدمير الآثار، ويوجد شيء وقح في المخطط، ولا يعفي شيئاً من التدمير لا داخل السور ولا خارج السور. ويوجد في نهاية المخطط الهدف، وهو البحث عن آثار ملوك دمشق التوراتيين على عمق 7 أمتار إلى 9 أمتار، ويقول أيضاً: إنه يمكن ألّا نجد شيئاً، فهل يمكن تدمير مدينة؟ ويمكن ألّا يجد شيئاً؟ وماذا يهمني كسوري بالبحث عن ملوك دمشق التوراتيين؟ فقلت: عندما كنت بمجلس محافظة دمشق لم تسقط دمشق 1967 وأتى مخطط إيكوشار ليقسمها عام 1968، ولا زلت عند هذا الرأي، وما زلت أشعر بأنه مخطط صهيوني، وبالطبع سيستفيد منه جميع التجار العقاريين وإذا كنتي تريدين أن تحلليه تحليلاً سياسياً فستقولين: إنه مشروع صهيوني وينفذ بأيدي رؤوس الأموال الكبيرة.

من سوليدير بيروت إلى ساروجة دمشق
عن قتل الذاكرة واغتيال روح المجتمع!

*د. محمد المعوش

ما يتعرض للاحتراق في دمشق القديمة، ليس مجرد معالم أثرية وتاريخية، بل هوية وروح مجتمع بأسره؛ فالمراحل الثلاث الأساسية في اغتيال الدول والشعوب باتت مكررة وواضحة: بدءاً من اغتيال جهاز الدولة المدني عبر «خصخصته»، أي إنهاء وظيفته الاجتماعية بالتدريج، ومن ثم اغتيال قسمه الصلب العسكري، أيضاً عبر شكل خاص من «الخصخصة» يقوم على إنهاء حصرية السلاح وتحويلها إلى «حصريات» عديدة... وبعد هاتين الخطوتين اللتين تحولان جهاز الدولة إلى حالة موت سريري، تبقى خطوة واحدة نحو الموت الكامل: سحب أجهزة التنفس، عبر قتل ذاكرة المجتمع وروحه.

لا يمكن للمرء أن يرى حرائق الشام القديمة المتكررة، وآخرها ما جرى في ساروجة مؤخراً، دون أن يحضره مثال سوليدير اللبناني الذي شكل المرحلة الثالثة في اغتيال لبنان، وجاء بالضبط في «نهايات الأزمة– الحرب اللبنانية»، كما هو الأمر الآن مع «نهايات الأزمة– الحرب في سورية».

ولذا، فمن المفيد في هذا السياق، أن يتعرف القارئ السوري عن قرب، على بعض المفاصل الأساسية في ملف «سوليدير»...

في سياق «إعادة الإعمار»

أخذ ملف «إعادة إعمار» بيروت الكثير من النقاش، وتحديداً تحت عنوان «إعادة إعمار المدن بعد الحروب أو الكوارث». وذلك من عدة جوانب؛ منها: المعماري والمدني والسياسي والتاريخي والاقتصادي والطائفي. واعتبره البعض نموذجاً للتوحش الضمني المرافق للنموج النيوليبرالي الذي بدأ يتوسع بشكل مفرط مع انهيار الاتحاد السوفييتي تحديداً الذي «يصادف» تاريخ توقيع «اتفاق الطائف» حول لبنان.

لم يكن «اتفاق الطائف» بما يخص التسوية الدولية والإقليمية والداخلية للحرب الأهلية اللبنانية إلا هدنةً مؤقتة للشكل العسكري من تلك الحرب، فيما بقيت أسباب الحرب فاعلة، لا بل كان الاتفاق نفسه عاملاً في تعميق تلك الأسباب عبر توزيع حصص «الهيمنة» على «الطوائف اللبنانية»، وعملياً على تجار الحرب الذين جرى تنصيبهم ممثلين للمجتمع دون استشارته ورغماً عنه؛ فالنموذج الطائفي للنظام السياسي يفترض هيمنة «طائفة» على حساب البقية لتماسكه الشكلي، وما إن انفرط عقد «التماسك الهيمني» حتى انفتح النظام على تفكك مستمر ما زال يتعمق دون إمكانية لحلّه على أساس الشكل الطائفي نفسه، منفجراً معارك عسكرية من وقت لآخر، لم تتطور لحد مستوى حرب أهلية محكوماً بالانهيار الاقتصادي والمالي، الذي هو نتيجة النموذج الاقتصادي الذي ساد طول العقود التي تلت هدنة الطائف.

لا يخرج ملف «إعادة الإعمار»، والذي أخذ شكله الأنضج في مدينة بيروت، عن هذا النموذج الريعي المعادي لأي شكل من الإنتاج، والمعادي للغالبية الساحقة من الشعب. فالمشروع الذي بدأ التحضير له في العام 1983 «ولم يبدأ تنفيذه إلا في عام 1993 بسبب المعارك التي تجددت بعد 1983» عبر شركة «سعودي أوجيه» «فرعها اللبناني أوجيه– لبنان»، التي صارت لاحقاً «الشركة اللبنانية لتطوير إعادة إعمار وسط بيروت»، المملوكة لرئيس الحكومة الراحل رفيق الحريري «دخل الحريري إلى السياسة من هذا الباب كممثل للمملكة العربية السعودية» وتجاهل توصيات مشاريع سابقة «في عام 1977، وآخر في عام 1978»، وحتى توصيات الفريق الهندسي الذي كان على رأسه وقتها الوزير السابق شربل نحاس والمعادي لمشروع «وسط بيروت» كما تم تنفيذه لاحقاً.

التوصيات كانت تهدف بشكل عام إلى معالجة نتائج الحرب التقسيمية من خلال تشكيل وسط مدينة لا يعيد فقط واقع المدينة كما كان قبل الحرب، أي في كونها مركزاً سكنياً واقتصادياً وتجارياً ومركزاً لخطوط النقل، والمساحات العامة، لكل النسيج الاجتماعي، وتحديداً إعادة ترميم الطابع التراثي للأبنية والثقافية، بل أيضاً استهدف أن يكون وسط المدينة مساحة جامعة تعمل بالضد من عملية التقسيم الاجتماعي والمناطقي والديمغرافي... الأمر الذي جرى نسفه فعلياً، وجرى تنفيذه بطريقة مختلفة تماماً؛ وللمفارقة، فقد تحول «وسط بيروت» إلى جامع حقيقي، ولكن للباشوات تجار الحرب والمستثمرين الأجانب والفاسدين واللصوص، وبات أشبه بجزيرة معزولة لا علاقة لها لا ببيروت ولا بلبنان، إلا من حيث هي أحد مراكز نهب لبنان وبيروت...

في المعالم العامة لمشروع «إعادة الإعمار»

في كون التسوية هي تأجيلاً وليست حلاً للتناقضات؛ كانت أهم المعالم المعمارية والمدنية لمشروع «إعادة الإعمار» هي طمس ونكران الحرب من جهة، ما أنتج على المستوى المعماري محواً للعاصمة كما كانت عليه قبل الحرب، ومن جهة أخرى، وكما حصل مع ملفات عديدة أخرى منها طمس ملف المفقودين، والمجازر الجماعية، وسياسياً نكران الخيانة الوطنية، وغيرها. فكان ملف إعادة الإعمار المكافئ المعماري والمدني لهذا النكران والطمس لأسباب الحرب وأحداثها، وكأن القوى السياسية الحاكمة اتفقت على الصمت، فتم خنق المدينة وصوتها.

يجمع الباحثون في قضية «إعمار وسط بيروت» أن المشروع كان جريمة بحق المدينة. ولأن القضية متعددة الجوانب، يمكن المرور سريعاً على أهم عناصرها. أولاً: قبل الحرب، شكلت المساحة السكانية والصناعية من وسط بيروت حوالي 42%. هذه المساحة تم القضاء عليها تقريباً بعد المشروع. ثانياً: تم تجريف غالبية الآثار المعمارية التي يعود بعضها للعهد الروماني بحجة تسريع العمل. ثالثاً: تم هدم غالبية المباني التراثية، وتحديداً البيوت. رابعاً: تم حصار وسط المدينة بمجموعة من الطرقات السريعة التي تعزل الوسط عن «ضواحيه» الشعبية، وفي الوقت ذاته تعزل الضواحي نفسها عن بضعها على أساس الفروقات «الطائفية». سادساً: صارت الهوية الأساسية للوسط قائمة على ثقافة الاستهلاك المعولم، والمجمعات التجارية «المولات» التي ضمت الماركات العالمية بشكل أساس، وما رافقها من مواقف للسيارات ابتلعت المساحات العامة. سابعاً: وهنا الجانب المباشر لعملية النهب المنظم والتي شهدنا آخر فصولها في السطو على أموال المودعين من قبل المصارف مؤخراً، حصل المشروع على أساس استملاك مجحف للمباني والعقارات بأسعار «تخمينية» مخفضة، فتم شراء العقارات والمباني بثلث حقها، وأحياناً أقل «يمكن مراجعة ملف أصحاب الحقوق في وسط بيروت، واللذين أصيب بعضهم بنوبات قلبية على الهواء مباشرة». هذه هي بعض المعالم الرئيسية لما رافق مشروع «سوليدير».

نتيجة المشروع اليوم

من جهة، لم ينجح مخطط «السلام» المزعوم في المنطقة مع الكيان الصهيوني «كانت تلك أحلام ورغبات التيار النيوليبرالي وممثليه في المنطقة»، ومن جهة أخرى، تعمقت أزمات النظام اللبناني على وقع اشتداد التناقضات عالمياً وإقليمياً. وفشل نموذج الريع كقاعدة لهوية وسط المدينة الذي قال عنه البعض: إن المقصود منه كان «مركز أعمال» «Central District» لا «وسط تجاري»، ما أنتج فراغاً مدينياً، صار لاحقاً «مدينة أشباح» وحصناً لأبراج معزولة، محصنة من قبل شرطة وأجهزة رسمية وغير رسمية على وقع تراجع السياحة من جهة، والاشتبكات المتكررة في العقد الأخير، وآخرها الاحتجاجات في الأعوام الثلاثة الماضية، التي اعتبرها البعض، وبمعزل عن نتيجتها السياسية وأزمة مشروعها السياسي، أنها أعادت روحاً ما لقلب المدينة البارد والفارغ، وأعيد تسيير بعض المرافق المغلقة التاريخية كسينما البيضة ومسرح تياترو بيروت، حيث صارت

مركزاً للنقاشات والاجتماعات السياسية والثقافية والفنية، وهناك ظاهرة الأسواق الشعبية «مثال سوق أبو رخوصة» التي كرهتها النخبة الحاكمة، وتحديداً مصرفيوها. ما سبق على رمزيته، أظهر أن هوية المدينة لا يمكن أن تفهم إلا ضمن الصراع السياسي– الاقتصادي الأوسع، فعودة الحركة السياسية وحدها أعادت لوسط المدينة حياته، ولو بشكل نسبي وجنيني.

وهكذا، كان فشل مشروع «إعادة إعمار وسط بيروت» تعبيراً فاقعاً عن فشل التجارب الليبرالية، وعن نتائجها المدمرة والتقسيمية والإلغائية.

حماية الآثار والاستفاقة الرسمية المتأخرة التي لا يعول عليها!

*نوار الدمشقي

الحريق المؤسف والمؤلم الذي نشب في منطقة ساروجة القديمة وسط العاصمة دمشق بتاريخ 2023/7/16، التهم الكثير من المباني فيها، بما في ذلك قصر اليوسف الأثري كلياً، وكذلك تضررت بسببه مساحة كبيرة من قصر خالد العظم الأثري، مع تسجيل خسارة إضافية كبيرة تتمثل ببعض الوثائق التاريخية الهامة!

وبعيداً عن الخوض في مسببات نشوب الحريق ومتاهاتها، فإن هناك مسؤولية مباشرة وغير مباشرة تتحملها الجهات الحكومية الرسمية قبل غيرها، ليس على مستوى الحريق الحالي بنتائجه الكارثية الكبيرة فقط، بل بسبب عوامل التقصير والإهمال واللامبالاة المستمرة طيلة العقود الماضية، وصولاً إلى الحال المزري للمنطقة ببيوتها المتهتكة والمتهالكة، بما في ذلك التراثية والقديمة المصنفة كآثار، والمحمية افتراضاً من قبل الجهات المعنية رسمياً على المستوى المحلي، ومن قبل اليونسكو كمنظمة دولية معنية أيضاً!

وبعيداً عن كيل الاتهامات المباشرة، يجب ألّا نغفل أهمية الآثار والتراث بحياة الشعوب، وبأن فصل الشعوب عن تراثها والقطع مع تاريخها هي غاية بحد ذاتها تعمل عليها بعض القوى، مسخرة الكثير من الإمكانات لتحقيقها!

الحماية الشكلية كانت وبالاً على الآثار والتراث!

منطقة ساروجة عموماً تعتبر أثرية وتراثية وبالتالي محمية افتراضاً، لكن ذلك كان بالنتيجة وبالاً على بيوتها وسكانها!

فالحماية الشكلية على مر العقود والسنين الماضية كانت تتمثل رسمياً بمنع عمليات الترميم والصيانة لهذه

المباني، وبالحد الأدنى صعوبات كبيرة وتكاليف مرتفعة، بالإضافة إلى الكثير من الاشتراطات، التعجيزية أحياناً، التي حالت دون التمكن من عمليات الصيانة المطلوبة للكثير من أبنيتها من قبل مالكيها أو ساكنيها وشاغليها، ومن نتائج ذلك ما يتم تسجيله بين الحين والآخر من تهدم لبعضها، جزءاً أو كلاً، بفعل عوامل الإهمال وعوامل الطبيعة على مر الزمن!

والحال لم يكن أفضل على مستوى المباني الأثرية والتراثية التي بعهدة وزارة الثقافة أو المحافظة، كمسؤولية وإشراف مباشر عليها أو من خلال الاستملاك، فهذه أيضاً أصابها الكثير من الإهمال والاستهتار، وصولاً إلى حال التردي والتهتك على مر السنين!

والأمر لم يقف عند هذا الحد فقط بل تجاوزه إلى أن بعض البيوت الاثرية والتراثية مشغولة ومستثمرة كورشات حرفية ومهنية أيضاً، ما يعني مزيداً من تهتكها وانعدام صيانتها وترميمها!

والأهم من كل ما سبق هو التراخي بعوامل الأمان على مستوى البنية التحية في هذه المنطقة، سواء بما يخص شبكات المياه والصرف الصحي والكهرباء فيها، أو بما يخص تفادي أو الحد من النتائج الكارثية لأي حريق قد ينشب فيها، وهو ما تم دفع ضريبته من خلال سهولة وسرعة انتشار النيران، فلا مصادر إضافية للمياه من أجل عمليات الإطفاء، ولا بنية تحتية مؤمنة لهذه الغاية، ومراكز الإطفاء بعيدة نسبياً عنها، ومن الصعوبة اختراق حاراتها الضيقة!

على ذلك فإن الحريق الكارثي الأخير في منطقة ساروجة الأثرية والتراثية هو آخر ما حرر من نتائج الإهمال واللامبالاة الرسمية وليس بدايته، مع كل أسف!

الكارثة المعممة ومصالح الاستثمار!

هذا الواقع البائس بما يخص منطقة ساروجة الأثرية والتراثية لا يختلف عن غيرها من المناطق الشبيهة في دمشق القديمة ومحيطها، والمسجلة مبانيها ضمن تصنيف الحماية المفترضة، إلا بشكل بسيط ونسبي!

ولعل الاختلاف الوحيد المسجل بهذا السياق هو اختراق الاستثمارات في بعض الأحياء من مدينة دمشق القديمة، والتي فسح المجال لمستثمريها بإجراء عمليات الترميم اللازمة للبيوت المستثمرة من قبلهم، ليس بغاية الحفاظ عليها كتراث وكثروة أثرية، بل بغاية ضمان أرباح مستثمريها فقط لا غير!

والأكثر من ذلك أن الغايات الاستثمارية الربحية من بعض البيوت الأثرية والتراثية في دمشق القديمة كانت سبباً إضافياً لتهالكها، عبر أساليب الفساد والنفوذ، للضغط على مالكيها أو شاغليها كي يخلوها بغاية استثمارها وتحقيق الأرباح السهلة والسريعة منها!

وأي استثمار.. مطاعم وفنادق وبارات و.. لا علاقة لها لا بالتراث ولا بالآثار!

فغزو هذا النمط من الاستثمار كان سبباً إضافياً لتسجيل المزيد من عوامل الاستهتار واللامبالاة الرسمية،

ليس تخلياً عن المهام والواجبات والمسؤوليات، بل تكريساً للتضحية بالتراث والآثار، وهو ما جرى ويجري عاماً بعد آخر!

استفاقة متأخرة شكلية أيضاً!

جرى اجتماع بتاريخ 2023/7/20 في وزارة الإدارة المحلية ناقش وضع خطة عمل لحماية المناطق الأثرية والتاريخية من الحرائق.

وقد حضر الاجتماع كل من وزير الإدارة المحلية والبيئة ووزيرة الثقافة، ومحافظ دمشق.

ومن مفرزات الاجتماع، بحسب ما ورد على صفحة الحكومة الرسمية: «وضع خطة لتلافي تكرار الحريق الذي حدث في مدينة دمشق القديمة «حي العقيبة»، والوقوف على الواقع التنظيمي للمنطقة الأثرية والتاريخية وواقع الاستملاك والإشغالات فيها، على أن يشمل ذلك جميع المناطق المشابهة من حيث التكوين والبنى».

الاجتماع أعلاه لن يخرج الزير من البير بالنسبة لمدينة دمشق القديمة بتراثها وآثارها، فهو كأعراض النخوة المفاجئة التي ما تلبث أن تزول وتتلاشى!

فكم من حريق أتى على مناطق وآثار في دمشق القديمة، ولم نلمس جديداً بعده على مستوى اختلاف آليات التعامل مع أبنيته المحمية افتراضاً!

فالحال بقي على ما هو عليه من صعوبات ومعيقات من أجل عمليات الترميم المطلوبة للأبنية في هذه المناطق من قبل مالكيها وشاغليها، والبنى التحتية على حالها من التهتك والترهل، بما في ذلك شبكات الكهرباء السيئة، التي ربما تكون لوحدها كفيلة بنشوب الحرائق واستعارها فيها!

الخشية المشروعة!

أكثر ما يخشى منه مالكو البيوت وشاغلوها في دمشق القديمة هي عمليات الاستملاك التي يتم تبريرها بذريعة الحفاظ على التراث والآثار، والتي لا تكون نتيجتها إلا خسارة لهم، مع استمرار تهتك هذه البيوت إهمالاً واستهتاراً، وهو ما جرى خلال العقود الماضية!

ولعل الحريق الأخير في ساروجة دليل على ذلك، فقصر خالد العظم لم يسلم من الحريق، وقصر اليوسف أصبح أثراً بعد عين!

وقبل ذلك ما زالت مشكلة حي الحمراوي في دمشق القديمة قائمة ومستمرة دون حلول حتى تاريخه!

والمثال الفاقع على مستوى نمط الحفاظ على التراث والآثار الرسمي هو واقع حال محطة الحجاز الراهن، وما جرى لسوق القرماني خلال السنوات الماضية، والأهم من كل ما سبق هو مثال مجمع يلبغا بكتلته الإسمنتية الكبيرة، على أنقاض بعض الآثار التي دفنت تحته، والكثير من الأمثلة الشبيهة، سواء في دمشق أو بغيرها من المدن على طول البلاد وعرضها!

فالحديث الرسمي أعلاه عن «الواقع التنظيمي للمنطقة الأثرية والتاريخية وواقع الاستملاك والإشغالات فيها» ربما يكون تمهيداً لمزيد من الاستملاكات، سواء في منطقة ساروجة أو غيرها من أحياء دمشق القديمة المبوبة ضمن الحماية، مع عدم ضمان الحفاظ عليها طبعاً!

طغيان عقلية الاستثمار!

ما جرى ويجري بحق التراث والآثار، والمناطق المسجلة على قائمة الحماية المحلية والدولية، في البلاد عموماً، هو بعهدة الحكومة وجهاتها الرسمية المعنية قولاً واحداً كمسؤولية وواجبات، بكل ما يتعرض له أو يطرأ عليه، ولا يعفيها من ذلك أي مبرر أو ذريعة، حتى ولو كان ذلك بفعل عوامل الطبيعة!

لكن الاستفاقة الرسمية المتأخرة، ووفقاً لسير الأمور على أيدي الرسميين خلال العقود والسنين الماضية، قد لا تشي بالخير، لا بالنسبة لمالكي البيوت في المناطق المحمية باسم التراث والآثار، ولا بالنسبة لهذه البيوت نفسها على مستوى حمايتها الفعلية!

فعقلية الاستثمار هي الطاغية بالمنطق الاقتصادي الذي يحكم البلاد، وهي ذات الأولوية بالاهتمام الرسمي، بما في ذلك الاستثمار بالآثار والتراث، سواء بشكل مباشر من خلال المحافظة عليه شكلاً كحال المطاعم والبارات في دمشق القديمة، ووصولاً إلى دفنه إن اقتضت مصالح الاستثمار ذلك، كحال مجمع يلبغا وسوق القرماني!

الحلول ممكنة!

والسؤال الذي يفرض نفسه بعد كل ما سبق، هل من حلول تضمن الحماية الحقيقية للتراث والآثار في البلاد؟

والجواب بكل اختصار نعم هناك حلول، ونقطة البدء فيها بأن تستعيد الدولة مهامها وواجباتها ومسؤولياتها كاملة، ومروراً بالانتهاء من السياسات التفريطية المعتمدة رسمياً، ولا تنتهي بإبعاد النمط الطاغي من التغول الاستثماري المحمي بهذه السياسات، نفوذاً واستغلالاً وفساداً!

قاسيون

مركز دراسات قاسيون

KASSIOUN.ORG

قاسيون ناطقة باسم حزب الإرادة الشعبية بقرار المؤتمر الاستثنائي في 2011/12/03

دمشق. ص.ب 335033 – تلفاكس 00963113120598

General@Kassioun.com